



سيرة الشيخ يوسف الأزهرّي وأبرز منجزاته^١

(١٢٣٠-١٣٠٧ هـ / ١٨١٥-١٨٨٩ م)

اسمه ولقبه

هو الشيخ يوسف بن عبد القادر الحسيني الأزهرّي، ويُعرف أيضا بالأزهرّي. وتتفق جميع المصادر على اسمه ولقبه: الأزهرّي. ولا يزال أحفاده، حتّى الآن، يُقرّون بأنهم حسيّيون. والطريف أنّ الشيخ يوسف الأزهرّي، في مقدّمة كتابه "شرح راض الفرائض"، الذي ألفه في الشرع الإسلاميّ، يشرح لنا، في جملة ما يشرح، معنى اسمه، ومعنى الأزهرّي، وسبب تسميته بهذا الاسم، كما سبب تلقيبه بالأزهرّي، فهو يقول:

وبعد، فالعبدُ الفقيرُ يوسفُ من بالأسير الأزهرّيّ يُوصفُ

ثمّ يشرح لنا معنى هذا البيت من أرجوزته بقوله: "والعبد والفقير صفتان مشبّهتان، ومعنى الأوّل: الخاضع المطيع، ومعنى الثاني: المحتاج. ويوسف: اسم عبريّ معناه الفضل أي الزيادة، وهو في الأصل، علّمُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم العزيز ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام. والأسير: الأخيذ، فهو فعيل، بمعنى مفعول وإمّا لُقّبْتُ بذلك، لأنّ الإفنج أسروا جدّي أيام حرب مالطة من سفينة، وقد أقام بها برهة، ثمّ عاد لبلده صيدا طليقًا، وأخبر عمّا رآه من أهلها".^٢

أمّا كيف أُسِرَ، ولماذا؟ فإنّه لم يذكر ذلك. وقد أخبرني حفيده خليل بن محمّد بن يوسف الأزهرّي، أنّ أجداده حسيّيون جاءوا من المغرب، وفي أثناء مرورهم قرب مالطة، أسرهم رجالها، فعُرِفَ جدّهم بالأسير بعد عودته إلى صيدا حيث استوطن.

ولو كان للشيخ علّمُ بهذه الحادثة لذكرها على الأرجح، وهو يشرح أيضًا السبب الذي من أجله لُقّبَ بالأزهرّيّ، فاستمع إليه يقول: "والأزهرّيّ: نسبة للأزهر، وهو الجامع الذي بناه جوهر قائد الملك المعزّ حين افتتح مصر،... وإمّا نُسِبْتُ إليه لأنني اقتبسْتُ من نوره حين جاورت فيه أمّ بُدُورِه...".^٣

١ نقلًا عن: الأحمر، محسن، الشيخ يوسف الأزهرّي، ١٨١٥-١٨٨٩ م / ١٢٣٠-١٣٠٧ هـ، حياته ونتاجه، رسالة أعدت لنيل شهادة الكفاءة للتعليم الثانويّ، إشراف الدكتور

جبّور عبد النور، بيروت، الجامعة اللبنانيّة، كليّة التربية، دورة حزيران ١٩٧٠، ص ٢-٢١.

٢ الأزهرّي، الشيخ يوسف، شرح راض الفرائض، بيروت، ١٢٩٠ هـ، ص ٤-٥.

٣ الأزهرّي، الشيخ يوسف، شرح راض الفرائض، بيروت، ١٢٩٠ هـ، ص ٥.

ولادته وحدثه

تُجمع المراجع على أنّ الشيخ يوسف الأسير وُلد في صيدا، وذلك سنة ١٨١٥ م / ١٢٣٠ هـ. ويحدّد الشيكونت فيليب دي طرازي تاريخ ولادته في ذى القعدة من هذه السنة^١، وكان سليمان باشا واليًا على صيدا آنذاك، وكانت سنة حراد وطاعون^٢.

نشأ يوسف في حجر والده الذي كان تاجرًا. أمّا نوع التجارة التي كان يتعاطاها ذلك الوالد، فلم يذكرها أحد ممّن تناولوا الشيخ يوسف بالبحث. غير أنّ حفيده خليل ذكر لي أنّه كان تاجرًا عاديًا يتعاطى التجارة بالحبوب والمواد الغذائية، وبعض الأقمشة، وكان له مخزن قرب البحر في صيدا. يكتنف الغموض حياة الشيخ يوسف الأسير [في سنيه الأولى]، وكلّ ما نعرفه عن مرحلة طفولته هو أنّه تلقى مبادئ العلوم، من قراءة وكتابة، في وطنه صيدا. يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه "حليّة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" شيئًا من التفصيل عن هذه المرحلة من حياة الأسير، يقول: "وتعلّم القرآن وهو ابن سبع سنين على الشيخ إبراهيم عارفة، وجوّده على الشيخ علي الديري، ثمّ شرع في طلب العلم، فقرأ على الشيخ الشرمبالي نحو خمس سنين"^٣.

لم يحبّ التجارة مهنة والده، بل عكف على العلم، ومال إلى تحصيل المعارف منذ نعومة أظفاره. ويتفق يعقوب صروف في مقتطفه^٤ مع الشيخ البيطار في أنّ الأسير ختم القرآن في السابعة من عمره. كما يذكر الأب شيخو والشيكونت دي طرازي^٥ أنّه تلقى مبادئ العلم في صيدا على الشيخ أحمد الشرمبالي.

بقي في صيدا حتّى سنّ السابعة عشرة من عمره، رحل بعدها إلى دمشق، ومكث مدة في مدرستها المرادية يتلقّى شيئًا من العلم على علمائها المحقّقين. هذا ما تذكره معظم المراجع. فيكون إذن قد شخص إلى دمشق سنة ١٨٣٢. ولم تطلّ به الإقامة هنالك، بل مكث في المدرسة المذكورة مدة ستة أشهر فقط^٦ إذ بلغه خبر وفاة والده، فرجع إلى مسقط رأسه صيدا ليدير أحوال عائلته، ويمهّد لهم سبل المعيشة^٧. يظهر أنّ والده لم يكن ميسورًا بقدر كافٍ، وهذا ما جعل الشيخ يوسف ينصرف إلى الاهتمام بتدبير شؤون العائلة الحياتية. وأقام نحو ثلاث سنوات في صيدا يتعاطى التجارة مكان أبيه، ويربّي إخوته^٨.

١ دي طرازي، الشيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربية ج ١، بيروت، ١٩١٣ م، ص ١٣٥.
 ٢ الأمير حيدر أحمد الشهابي، كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، ضبط الدكتور أسد رستم (١٨٩٧-١٩٦٥) والدكتور فؤاد إفرايم البستاني (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، القسم الثالث، لبنان في عهد الأمير بشير الثاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، رقم ١٧، بيروت ١٩٦٩، ص ٦٠٨ و ٦٢٩.
 ٣ الشيخ عبد الرزاق البيطار، حليّة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ج ٣، دمشق، ١٩٦٣ م، ص ١٦٦.
 ٤ صروف، يعقوب، المقتطف، ج ١٥، ص ١٢٢.
 ٥ دي طرازي، الشيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربية، ج ١، بيروت، ١٩١٣ م، ص ١٣٥.
 ٦ الشيخ عبد الرزاق البيطار، حليّة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ج ٣، مرجع سابق، ص ١٦٦.
 ٧ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، ط ٣، مصر، ١٩٢٢ م، ص ١٦٤.
 ٨ البيطار، عبد الرزاق، حليّة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، مرجع سابق، ص ١٦٦.

ولم يُرَق له العيش في صيدا نظراً لاجتهاده وتعلّقه بالعلم، فهو يحبّ الزيادة والتعمّق في العلوم والمعارف. فرحل إلى الديار المصريّة قاصداً القاهرة، مُيمِّماً وجهه شطر أزهريها، وكان كعبة العلم آنذاك في البلاد الإسلاميّة.

متى سافر يوسف الأسير إلى القاهرة؟

يقول الفيكونت فيليب دي طرازي: "وهناك انتظم في سلك تلامذة الأزهر الذي كان برئاسة الشيخ حسن العطار. ولما توفي العطار تقلّد مشيخة الأزهر سمّيه حسن القوينسي"^١. ويقول جرجي زيدان في «تراجم مشاهير الشرق»، وهو يتحدّث عن الأسير عندما كان موجوداً في مصر: "وكثيراً ما كان يحضر الإمتحانات العموميّة التي كانت تجري بحضور عزيز مصر إذ ذاك..."^٢. أوردنا هذه الأحاديث لنعلم في أيّة سنة سافر الشيخ الأسير إلى القاهرة، لأنّ المراجع التي بين أيدينا لا تذكر ذلك. ماذا نستنتج من هذين القولين؟ إذا دقّقنا فيهما ظهرت لنا نقطتان جديرتان أن تؤخّدا بعين الاعتبار:

أولاهما: أنّ يوسف الأسير دخل الأزهر تلميذاً. وكان المعهد برئاسة الشيخ حسن العطار، ثم جاء بعده الشيخ حسن القوينسي. النقطة الثانية هي أنّ الأسير صادف عزيز مصر.

ونحن نعلم أنّه، بعد عودته من دمشق، مكث نحو ثلاث سنوات في صيدا، كما نعلم أيضاً أنّ الشيخ حسن العطار توفيّ سنة ١٨٣٤ م/ ١٢٥٠ هـ، وقد صادف الأسير محمّد علي الذي تُوفيّ سنة ١٨٤٨ م. إذن يكون قد عاد من الشام سنة ١٨٣٢ م، وبقي في صيدا تقريباً ثلاث سنين، وسافر في أواخر سنة ١٨٣٤ م/ ١٢٥٠ هـ إلى الأزهر حيث صادف الشيخ حسن العطار الذي تُوفيّ، كما يظهر، بعد مدّة وجيزة ليتولّى منصب رئاسة الأزهر الشيخ حسن القوينسي المتوفّي سنة ١٨٦٣ م/ ١٢٦٣ هـ.

راح الأسير يأخذ العلم عن مشايخ الأزهر، كالشيخ الباجوريّ، والشيخ محمّد الشبيبيّ، والشيخ محمّد الدمنهوريّ، والشيخ محمّد الطندتاوي (الطنطاوي).

بقي يوسف الأسير في الأزهر مدّة سبع سنوات^٣. وطوال المدّة التي أقامها هناك أكبّ على الدراسة بوعي، وتعمّق، حتّى برع كما يذكر في العلوم العقليّة والنقليّة وصار إماماً يُرجع إليه، ويُعوّل في حلّ المشكلات عليه^٤. وهذه العلوم كان لها مفهوم خاصّ. فالعلوم النقليّة تعني العلوم التي تتعلّق بالدين والتشريع، مثل علم التوحيد، والفقه، والحديث، والتصوّف. أمّا العلوم العقليّة فهي تشمل بقيّة العلوم مثل

١ دي طرازي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، بيروت، ١٩١٣، ص ١٣٥. وفي القوينسي يقول أحد الشعراء معترفاً بفضل الحسنيين:

ولئن مضى حسنُ القوم لرّبّه
فلمقد أتى حسنٌ وأحسنٌ من حسن
أنت المقدّم رتبةً ورئاسةً
وديانةً من ذا الذي ساواك من؟

٢ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٤.

٣ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٢.

٤ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٢.

علم اللغة، والعروض، والبلاغة، والمنطق، وعلم الهيئة. ولم يدرس علم الهيئة إلا لأغراض عمليّة، مثل علم التقويم، وتحديد مواقيت الصلاة. ومن العلوم العقليّة هذه أيضًا: الأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والعلوم الطبيعيّة والرياضيّة. ولكنّ دراسة هذه العلوم الأخيرة أهملت منذ القرون الوسطى، وإذا دُرست فإنّما كانت تُدرّس بشكل ثانويّ، ومن مصادر تافهة^١.

كان لحملة بونابرت على مصر بعض الأثر في تفتيح أذهان الأزهريين. كما أنّ محمد علي باشا أدخل بعض الإصلاحات على الأزهر، فأخذت العلوم العقليّة تتسرّب وتنمو فيه. ويكون يوسف الأسير قد أخذ بما كان يُسمَح بتدريسه منها آنذاك، وأصبحت له مكانته المرموقة في مصر، إذ كان يجالس أكابر علمائها، ويشترك ببعض النشاطات العلميّة، فكثيرًا ما كان يحضر الإمتحانات العموميّة التي كانت تجري بحضور عزيز مصر إذ ذاك في المدارس العموميّة. فيقترح أكثر المسائل على التلاميذ بإرشاد مشائخه^٢.

ماذا كان يفعل غير الدرس؟ يذكر أدهم آل جندي في كتابه: أعلام الأدب والفن، الجزء الثاني، في الفصل الذي عقده للكلام على الشيخ يوسف الأسير، أنّ هذا الأخير علّم في القاهرة أولاد بعض الأعيان. ولم أحد ذكّرًا لهذا الخبر عند غيره، وربّما يكون أخذه من أحد أنسبائه.

مغادرته الأزهر وعودته إلى لبنان

أمضى الشيخ يوسف الأسير سبع سنوات في الأزهر، حصل خلالها قدرًا وافيًا من العلم، غير أنّه أصيب بمرض الكبد الذي لازمه طوال حياته. ثمّ عاد، بعد ذلك، إلى صيدا بسبب هذا الداء الخبيث^٣. يكون إذن قد وصل صيدا سنة ١٨٤١م. ويذكر جرجي زيدان أنّ الشيخ لم يترخّ إلى الإقامة في صيدا إذ لم يجد مجالًا لنشر فضله، فسافر إلى طرابلس، وهناك لاقى من علمائها ووجهائها حسن الوفادة والرعاية، ففضى بينهم ثلاث سنوات^٤. ولكن لا نعلم ماذا فعل في صيدا، ولا متى غادرها إلى طرابلس، وربّما وصل إلى الفيحاء حوالي سنة ١٨٤٢م. أمّا ماذا كان يفعل؟ فنحن نعلم أنّ كثيرًا من أفاضل طرابلس أخذوا العلم عنه، وأنّ مقامه لم يخلُ يومًا من جماعة منهم. وذكر لي الشاعر صلاح الأسير، حفيد الشيخ الأسير، أنّ جدّه لاقى كثيرًا من الحفاوة في طرابلس، وقدره أهلها وعلماؤها حقّ قدره، حتّى إنّّه خلال الثلاثة الأعوام التي قضاها فيها لم يتناول طعامه في منزله أو في منزل محدّد، بل كان يدعو أبناءها بصورة مستمرّة. ويوافقه الكسّبي كذلك في مقدّمة "مراثي الأسير" إذ يقول: "وقد أخبرنا - رحمه الله تعالى - أنّه في مدّة الثلاث سنوات التي

١ يونس، عبد الحميد، وتوفيق، عثمان: الأزهر، ط ١، دار الفكر العربيّ، ١٩٤٦، ص ٧٨.

٢ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٤.

٣ المقتطف، ج ٥، ص ١٣٢ / داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٢٣.

زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٤.

سركيس، يوسف البان، "الأسير"، (الشيخ) يوسف في معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، مصر، ١٩٢٨.

٤ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، ط ٣، مصر، ١٩٢٢، ص ١٦٤.

أقامها فيها (طرابلس) معهم لم يمكّنوه من تناول الطعام في بيته مرّة واحدة^١. ويورد آل جندي أنّ حلقة الشيخ كانت مشهورة في المسجد المنصوري الكبير^٢، ولا أعلم من أين جاء بهذا الخبر.

ومن الذين أخذوا عنه اللغة العربيّة، في هذه الفترة، نذكر: يوحنا الحاج بطريك الموارنة، ويوحنا الحبيب مؤسس جمعية المرسلين [اللبنانيين] الموارنة، وكانا يدرسان عليه العلوم الإسلاميّة، ويادلانته حبًّا بحت^٣. كما أنّ الأسير كان على علاقة طيبة مع الشيخ محمّد رشيد بن أبي بكر الميقاتي، ومدح زميله الشيخ محمّد رشيد^٤ (١١٩٨هـ - ١٢٨٢هـ).

قضى الشيخ يوسف الأسير في طرابلس، كما مرّ معنا، ثلاث سنوات، لكنّه عاد فغادرها إلى بيروت لجودة هوائها، واختار الإقامة فيها أخيراً. ولعلّه جاءها حوالي سنة ١٨٤٥م. وكانت شهرته واسعة، فما كادت رحله تطأ بيروت حتّى هرعت إليه الطلبة، وكثر مريدوه، لأنّه أيضاً عندما عاد من الأزهر إلى صيدا، تهافت إليه الطلّاب من كلّ صوب فكان يدرّسهم ويهدّهم^٥.

بدأت بيروت، في ذلك الحين، تزهر بالمدارس، والمطابع^٦، وفي طبيعتها الكليّة السوريّة، وكليّة المرسلين اليسوعيّين، ومدارس رسميّة؛ ومن المطابع المطبعة الأميركيّة، ومطبعة اليسوعيّين، وغيرهما. وأنشئت فيما بعد المدارس الخاصّة، ومدارس جمعيّة المقاصد الإسلاميّة^٧، إذ أنشئت جمعيّة المقاصد الخيريّة في سنة ١٨٧٨ من خمسة وعشرين شابًّا، وغايتها مساعدة الفقراء، وإنشاء مدارس للذكور والإناث، وكان من أعضائها: محمود حرما، وهاشم الجمال، وطه النصولي^٨.

وقبل أن نتبّع نشاط الأسير في بيروت، يجدر بنا، من أجل الأمانة العلميّة، أن نذكر ما أورده أدهم آل جندي. يقول آل جندي إنّ الأسير سافر مرّة إلى الآستانة، ورشّحه شيخ الإسلام ليكون قاضيًّا في إحدى الولايات مقابل معاش ألف غرش شهريًّا، فرفض الشيخ الأسير، واكتفى بالتعليم وحده، ثمّ عُيّن قاضيًّا في المتن وكسروان، بعد عودته إلى بيروت في عهد الأمير حيدر أبي اللمع، وبقي أربع سنوات^٩. ونحن نعلم أنّ الأمير حيدر أبي اللمع عُيّن قائمقامًا سنة ١٨٤٠، وأنّ الشيخ الأسير ترك طرابلس حوالي سنة ١٨٤٥، وتوفّي الأمير حيدر سنة ١٨٤٥، فيكون الأسير قد سافر إلى الآستانة بين الفترة الواقعة بين سنة ١٨٤٥ وسنة تخلي الأمير حيدر عن

١ آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفنّ، ج ٢، مطبعة الأتحاد، سوريا، ١٩٥٨، ص ٣٢٥.

٢ دي طرزاي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٥.

آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفنّ، ج ٢، مرجع سابق، ص ٣٢٥.

٣ نوفل، عبدالله حبيب، تراجم علماء طرابلس الفحاء وأدبائها، مطبعة الحضارة، طرابلس، ١٩٢٩م، ص ٥٦. [وفي مدح الشيخ الميقاتي قال الشيخ الأسير:]

رُز بلاذ الله واحتر مسكنا في طرابلس الشام يا مريد

لا ترى فيها مكينا أمكنا في مقامات التقى إلا رشيد

٤ دي طرزاي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٥.

٥ دي طرزاي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٥.

٦ جريدة ثمرات الفنون، عدد ١٨١، الإثنين في ١٢ رمضان ١٢٩٥ هـ / ١٨٧١م، ص ١.

٧ جريدة ثمرات الفنون، عدد ١٨٥.

٨ آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفنّ، ج ٢، مرجع سابق، ص ٣٢٥.

منصبه. هذا إذا صحّ الاعتبار الذي ذكره الجندي. وأنا لم أجد، في جميع المراجع التي عدت إليها، أيّ ذكر لسفر الأسير مرتين إلى الآستانة. وقد أخبرني صلاح الأسير أنّ سلفه سافر إلى الآستانة لتصحيح المجلّة الشرعيّة بناء على طلب أحد المسؤولين هناك، ولا يعلم في أيّة سنة.

لكننا سنعمد ما ورد في جميع المراجع. ترك الأسير طرابلس، وجاء إلى بيروت، فماذا فعل فيها؟ تولّى الشيخ يوسف الأسير، في أثناء إقامته في بيروت، رئاسة كتابة محكمتها الشرعيّة «أيام قاضيها مصطفى عاشر أفندي»^١. ومتى أسند إليه هذا المنصب؟ وكم بقي فيه؟ إنّ المراجع تضمنّ علينا بذلك، ولا يمكننا التكهن في هذا المجال. ولا نعلم متى كان مصطفى عاشر أفندي قاضيًا. يقول الجندي إنّ بقي أعوامًا، وإذا صحّت روايته أنّ الأسير تسلّم هذا المنصب بعد ولاية الأمير حيدر للقائمقاميّة، يكون تاريخ قيام الأسير بهذا المنصب في الخمسينيّات. وقد ذكر لي خليل الأسير أنّ جدّه بدأ بالتأليف في الفرائض في أثناء هذه الفترة. ثمّ أسند إليه منصب إفتاء مدينة عكا، ولكن لا نعلم متى على وجه التدقيق. وشاعت هذه العبارة على ألسنة الناس آنذاك: "يا يوسف الصديق أفنتنا" كما أورد لي خليل الأسير.

ثمّ جاءت سنة ١٨٦٠م، وحملت إلى لبنان تلك الحوادث الدامية، وعقبها بعد ذلك نظام البروتوكول في لبنان، وعُيّن على أثره داود باشا متصرفًا على لبنان. وقد تسلّم الشيخ يوسف الأسير وظيفة المدعي العموميّ في جبل لبنان أيام واليه [متصرفه] داود باشا. وقام بهذه المهمة مدّة سبع سنوات، أي طوال مدّة ولاية داود باشا، أي من سنة ١٨٦١م إلى سنة ١٨٦٨م.

في الآستانة: لماذا سافر الشيخ يوسف الأسير إلى الآستانة؟

الكتب التي عدت إليها تقول، في معظمها: ثمّ انتقل إلى الآستانة... ثمّ انتقل إلى دار الخلافة... ولا تورد الأسباب. وذكر لي الشاعر صلاح الأسير أنّ الشيخ استدعي ليصحّح في دائرة نظارة المعارف. لكنّي عثرت في كتاب وضعه صلاح بين يديّ، وهو أعلام الأدب والفنّ لأدهم آل جندي، على ورقتين تتناولان حياة مصطفى الأسير بن الشيخ يوسف الأسير، ورد في أولاهما ما يلي: "مصطفى الأسير هو ثالث أُنجال العلامة الشهير المرحوم الشيخ يوسف الحسينيّ الأسير، وُلد في بيروت سنة ١٨٥٦، وتلقّى علومه بمدارس الحكومة في بيروت واستنّبول عندما كان برفقة والده مع العائلة، يوم استدعت الحكومة العثمانيّة والده إلى العاصمة لتثنيه عن مشروعه الذي كان يرمي إلى ضمّ المدن الساحليّة من ولاية بيروت إلى متصرفيّة جبل لبنان. وهذا الكلام مكتوب بخطّ الريشة. وقفت من هذا الكلام موقف المتحقّظ، لأنّ الشيخ يوسف الأسير في مخطوطه "مجموع الأسير"، صفحة ٦٠٠، يذكر ما يلي:

١ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٤.

٢ المرجع نفسه، ص نفسها؛ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٢.

٣ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٢؛ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٤. إلّا أنّ أسعد داغر في مصادر الدراسة الأدبيّة، ج ٢، ص ١٢٣، يذكر ما يلي: "وأُسند إليه المتصرف فؤاد باشا وظيفة المدعي العامّ في جبل لبنان" ونحن لا نعلم أنّه يوجد، بين متصرفي لبنان، من يُعرف بهذا الاسم. ربّما يكون سهوًا أو خطأ طباعيًا.

٤ داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٢٣.

"مولد أولادنا:

محمد في ٩ شوال سنة ١٦٢٣، أحمد في ٩ ذي الحجة سنة ٦٤،
محمود في ١٢ ربيع أول سنة ٦٦، فريدة في ٢٧ جمادى الثانية سنة ٦٨،
مصطفى في ٨ جمادى الثانية ٧١، حسن حامد في ٢٠ شعبان سنة ٨٢".

يظهر، من هذا الكلام، أنّ مصطفى هو رابع الذكور، وخامس الأولاد. وهذا ما يدعو إلى الحذر من الأخذ بما ورد في الورقة التي تذكر أنّ مصطفى هو ثالث أبنجال الشيخ يوسف الأسير. أمّا خليل الأسير فقد سرد على مسمعي الخبر التالي: عندما كان جدّي الشيخ يوسف مدعيّ عامّ جبل لبنان، لمس تضايق الأهلين من التنقل بين بيروت وجبل لبنان، وبين جبل لبنان وبعض المناطق البقاعية، فراح يحاول ضمّ مناطق بيروت إلى جبل لبنان، فلم يترقّ هذا الأمر للدولة العثمانية فأرسلت، عند ذلك، مركب "باليك"، أيّ مركبًا أميريًا حمل الشيخ يوسف من بيروت إلى اسطنبول "تحت الحفظ"، أي محروسًا من قبل رجال أمن الدولة. وعندما وصل إلى الآستانة أنزل مخفورًا في " الطويخانة"، وصادف أن كان وزير العدالة خيرى بك مارًا من هناك فرأى الشيخ وعرفه، وعلم بالأسباب التي أوجبت استدعاءه. عند ذلك أمر أن يُنزل الشيخ في نزل يليق بمقامه. وفي الغد جمعه بالسلطان، وعرفه بقدره، ذلك أنّ الوزير كان قد تعرّف إلى الشيخ في بيروت وأدرك علوّ مقامه، وجيل قدره. ونزولًا عند رغبة السلطان، بقي الأسير في العاصمة العثمانية، وتولّى رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف. ثمّ استدعى الشيخ يوسف عائلته إلى الآستانة، ومكث فيها مدّة من الزمن.

أمّا لحد خاطر في كتابه "عهد المتصرفين في لبنان" فيذكر ما يلي: بعد سفر كرم [سنة ١٨٦٧] راق الجوّ لداود باشا، وتوهّم بأنّه سيتولّى متصرفية لبنان كلّ حياته، لذلك حمله الغرور على أن يوالي إخراجها (السلطنة) بطلبه توسيع استقلال لبنان، وتكبير حدوده، وبأن تُضمّ إليه بيروت، وطرابلس، وصيدا، ووادي التيم، والبقاع، وبعلبك... وزاد الطين بلّة أنّه أرسل إليها عريضة موقّعة من أهالي صيدا يطلبون فيها الإنضمام إلى لبنان... عند ذلك استدعته السلطنة إلى اسطنبول في أيار سنة ١٨٦٨^١.

استنادًا إلى ما تقدّم، لا يُستبعد أن يكون الشيخ الأسير وراء العريضة، وقد كان كما علمنا مدعيًا في جبل لبنان خلال ولاية المتصرف داود باشا، وأنّ تكون السلطنة وجدت فيه مؤازرًا للمتصرّف في تخطيطه لتوسيع رقعة لبنان، فاستدعته كما استدعت سيّده.

وهذه الأخبار لا تدلّ على أنّ الشيخ يوسف الأسير كان يريد استقلال لبنان، فهو من الموالين للدولة العثمانية. وإنّما كان يريد إجراء بعض التعديلات في حدود جبل لبنان في ذلك الوقت إذا صحّت الأخبار التي سلفت.

١ خاطر، لحد، عهد المتصرفين في لبنان، ١٨٦١-١٩١٨، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، رقم ١٤، ١٩٦٨، ص ٢٤.

إذا كان الأمر كما ذكرنا عن خير سفره إلى الآستانة، يكون قد وصلها في سنة ١٨٦٨م، وتخلّى عن منصب المدعي العموميّ لجبل لبنان. ماذا فعل الشيخ يوسف في الآستانة؟ تولّى فيها رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف^١. ثمّ تسلّم وظيفة أستاذ اللغة العربيّة في دار المعلمين الكبرى^٢. وخلال المدة التي أقامها في العاصمة العثمانية، كان على اتصال برجال البلاد وعلمائها، حتّى إنّ بعضهم أخذ العلم منه، كالصدر الأعظم رشدي باشا شرواني، وأحمد جودت باشا وزير المعارف، ووصفي أفندي رئيس كتاب شورى الدولة، وذهي أفندي رئيس مجلس المعارف، والمسيو بوره سفير فرنسا، وغيرهم^٣، وكان له مقامٌ رفيعٌ بين رجال السياسة في العاصمة العثمانية، حتّى إنّ علاقتهم به كانت علاقة التلميذ بأستاذه، بما للكلمة أستاذ من معنى في ذلك الحين. ويقال إنهم عرضوا عليه منصبًا من المناصب الرفيعة براتب جزيل على وعد الترقّي، فأبى رغبة في مواصلة خطّته العلميّة^٤. ويذكر أدهم آل جنديّ "أنّه عُيّن عضوًا في مجلس شورى الدولة فاعتذر". وربّما يكون الجنديّ قد أخذ هذا الرأي عن خليل الأسير الذي أخبرني أنّ الشيخ يوسف الأسير عُيّن في مجلس أعيان الدولة، ولكنّ سير العمل لم يلائم مزاجه، لأنّه كان حرّ الرأي فترك هذا العمل، ورأى الشيخ في مجلس شورى الدولة مكانًا للكسل والتراخي (تنبل خانة)، وكان يحبّ العمل الجدّيّ، فاعتذر رغم المعاش المغربي.

ويورد الفيكونت فيليب دي طرازي أنّ الشيخ يوسف الأسير كتب في جريدة "الجوائب" لمنشئها أحمد فارس الشدياق^٥، غير أنّي اطّلت عليها في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وهي مصوّرة بواسطة الميكروفيلم، فلم أجد أثرًا للأسير موقّعًا باسمه.

لم تطلّ إقامة الأسير في الآستانة لأنّ شدّة بردها لم توافق صحّته، فعاد منها إلى بيروت. وعندما همّ بالرجوع ماطلّه وزير المعارف في ذلك الوقت في قبول استعفائه، لأنّه كان يأمل باستبقائه لِمَا آنس من سعة علمه، وعاین من رواج الكتب التي صحّحها^٦. لكنّ إصرار الشيخ كان أقوى، فعاد إلى بيروت.

تفرّغ الأسير في بيروت للتأليف في الأبحاث الفقهيّة والفرائض^٧. كما راح يحرّر في معظم الجرائد التي كانت معروفة في المدينة آنذاك. ويُذكر أنّه تولّى رئاسة تحرير جريدة "ثمرات الفنّون"^٨ التي كان يصدرها عبد القادر قبّاني، وهي تابعة لجمعية ثمرات الفنّون. وحرّر أيضًا

١ شيخو، الأب لويس، المشرق، ج ١٢، السنة ١٢، عام ١٩٠٩، ص ٥٤٢.

٢ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٢؛ دي طرازي، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٧.

٣ مرجع نفسه، ص نفسها.

٤ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٥.

٥ دي طرازي، تاريخ الصحافة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٧.

٦ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٥.

٧ شيخو، الأب لويس، المشرق، ج ١٢، السنة ١٢، عام ١٩٠٩، ص ٥٤٢.

٨ دي طرازي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٨.

في جريدة "لبنان" الرسميّة^١ التي أنشأها داود باشا متصرف لبنان الأوّل. كذلك يُذكر أنّه تولّى رئاسة تحرير جريدة "لسان الحال"^٢ التي أسّسها خليل سركيس في بيروت سنة ١٨٧٧م، مدّة من الزمن.

ولم يكتفِ الأسير بالكتابة في الصحف، بل راح يدرّس في مدارس بيروت الكبرى وغيرها. وعلم الفقه والقوانين العثمانيّة في مدرسة الحكمة المارونيّة مدّة سنتين، وكان قد أنشأها المطران يوسف الدبس، ودرّس أيضًا في المدرسة الأميركيّة في عبيه وكان قد أسّسها الدكتور كورنيليوس فاندريك سنة ١٨٤٦م بمساعدة المعلّم بطرس البستاني. والتحق أيضًا بالمدرسة الوطنيّة التي أسّسها هذا الأخير سنة ١٨٦٣م. ويُذكر أنّه درّس في الكليّة السوريّة الإنجيليّة^٣ في بيروت، وفي مدرسة "الثلاثة أقمار" للروم الأرثوذكس^٤، وفي غيرها من المدارس.

وكان يطيب لنا أنّ نعلم متى درّس شيخنا في هذه المدارس، وما هي الدروس التي كان يعطيها. ولكنّ المصادر والمراجع التي بين أيدينا تبخل علينا بذلك. فهو وإن درّس الصرف في المدرسة الوطنيّة، والفقه والتشريع في مدرسة الحكمة، لكنّه لم يخبرنا ماذا درّس في غيرهما. لكنّ هذا الغموض لا يُفقدّه قدره وقيّمته، فهو كان ممّن يُعتمد عليهم في تدريس اللغة بصورة عامّة، كما يُركن إليه في حلّ المسائل الفقهية، وإيضاح ما غمض منها.

زواجه

يصعب علينا تحديد السنة التي تزوّج فيها الشيخ يوسف الأسير، ولكن في مخطوطه "مجموع الأسير" يذكر في الصفحة ٦٠٠ وهو يؤرّخ سنة ميلاد أولاده، كما مرّ معنا، وعمر كلّ ولد، أنّ ولادة ابنه البكر محمد كانت في ٦ شوال سنة ١٢٨٥هـ وله من العمر، عندما أرّخ سنة ميلاده، اثنان وعشرون عامًا. أي أنّه أرّخ ذلك سنة ١٢٧٥هـ. ولنفترض أنّه لم يُررّق أولادًا فور زواجه، يكون الأسير قد تزوّج في الفترة الواقعة بين سنتي ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م و ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م.

تزوّج الشيخ يوسف الأسير، أولًا، من ابنة عمّته حنيّفة كريمة الشيخ محمد النقيب الحسيني النسب، ورزق منها بخمسة صبيان^٥ وهم: محمد ١٢٦٣هـ / ١٨٤٧م، وأحمد ١٢٦٤هـ / ١٨٤٨م، ومحمد ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م، ومصطفى ١٢٧١هـ / ١٨٥٦م، وحسن حامد ١٢٨٢هـ / ١٨٦٦م. وكان له منها ابنتان وهما: فريدة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م، وثريّا. ويُذكر له ابن اسمه عبد الرحمن، لا أعلم إذا كان من زوجته الأولى أو الثانية. فهو قد تزوّج ثانية من آمنة خورشيد من طرابلس، كما ذكر لي حفيده خليل بن محمد بن يوسف الأسير.

١ المرجع نفسه، ص ١٣٥.

٢ المرجع نفسه، ص ١٣٨.

٣ داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٢٣.

٤ دي طزاري، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٧.

٥ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٢-١٣٣.

ولابنه مصطفى كتاب "النبراس ومآثر دين الإسلام"، وكتاب "تفسير الألفاظ اللغوية الواردة في القرآن"، وهو مرتّب حسب السُّور، وطُبع في بيروت في ١٦٤ صفحة مرتّين بدون ذكر سنة الطبع.

ومن أحفاده البارزين الشاعر صلاح الأسير الذي كان له يد بيضاء في إعداد هذا البحث، إذ أمدني ببعض المعلومات وقدم إليّ مخطوط جدّه "مجموع الأسير".

علاقته بأهل زمانه

كان يحكم لبنان الأمير بشير الثاني حتى سنة ١٨٤٠. وفي عهده جاء إبراهيم باشا المصريّ إلى سوريا فمدحه الأسير كما سنرى. وعاصر أربعة من المتصرفين ناهيك عن عمر باشا النمساويّ وهم: داود باشا (١٨٦١م-١٨٦٨م)، وفرنكو باشا (١٨٦٨-١٨٧٣)، ورستم باشا (١٨٧٣-١٨٨٣)، وواصا باشا (١٨٨٣-١٨٩٢). وكان سليمان باشا هو والي صيدا عندما وُلد الأسير، وبطرس البستاني كان مطراناً على صيدا وصور وقد نُفي إلى القدس سنة ١٨٧٨. [...] ومن السلاطين العثمانيين عاصرَ عبد العزيز، وعبد الحميد، وعبد المجيد [...].

تفاعل الأسير مع أبناء عصره، فقد أخذ العلم عنه كثير من عظماء البلاد وأعيانها. فمن الذين درسوا عليه، في أواخر حياته، غريغوريوس الرابع البطريك الأنطاكيّ الذي سيم بطريكاً في ١٨ حزيران سنة ١٩٠٦ م^١. وذكر لي السيّد خليل الأسير، حفيد الشيخ يوسف، أنّ البطريك المذكور أهدى جدّه صورة كتّبت عليها بخطّ يده ما يلي، وقد عاينها خليل بنفسه:

"لأبي محمّد الأسير
والرسم يشهد قائلاً
فضل عليّ أنا الحقير
إني أسيرٌ لابن الأسير

الفقير إليه تعالى بطريك أنطاكية وسائر المشرق: غريغوريوس حدّاد الرابع"

كما درس عليه الدكتور مرتين هرتمان أستاذ اللغة العربيّة في مدرسة الألسن الشرقيّة في برلين^٢. كما أخذ العلم عنه أيضاً الأستاذ أنطوان شحير الذي علّم مدّة في مدرسة كفتين. وخليل الأسير هو الذي ذكر لي هذا الأمر الأخير.

وكان الشيخ الأسير على اتصال بالمرسلين الأميركيين، وقد نظم لهم كثيراً من التراجم الدينيّة المستمدّة مواضيعها من المزامير والكتاب المقدّس، وهي مطبوعة وتُرثّل في الكنائس الإنجليزيّة. [...] وقد علّم بعض الأميركيين اللغة العربيّة كالدكتور كورنيليوس فاندليك، والدكتور عالي سميث الذي نقل المطبعة الأميركيّة من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٣٤، وباشراً بترجمة الكتاب المقدّس، ولكنّه توفّي سنة ١٨٥٧ قبل أن ينجز عمله هذا. فتابع فاندليك هذه المهمّة بمساعدة الشيخ الأسير الذي كان يصحّح عبارة الترجمة.

١ شاكور حوري، مجمع المسرات، مطبعة الإحتهاد، بيروت، ١٩٠٨، ٦٢٤.

٢ دي طزاري، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، مرجع سلبق، ص ١٣٨.

وكان الشيخ على صلة ببعض مشايخ الأزهر، وقد أُعجب به الشيخ محمد الطندتاوي الذي كتب له قصيدة من بطرسبورغ بمدحه فيها ويشي على علمه وفضله^١. فأجابه الأسير بقصيدة منها:

أستاذي مَنْ قد حكى الخليلَ ذكاءً والسعدَ بياناً وفي الفصاحة حسان
 حربٌ يتسمّى محمّداً وجديراً منه بذمامٍ أمدى الزمان وإحسان
 قد شرفني إذ أحبّني وحباني فضلاً وتغاضى عن العيوب وما شان
 أهدى لي شعراً حوى بياناً أياس بل يركع قسّ له ويسجد سحبان^٢

وكان له مراسلات شعرية ونثرية مع أدباء زمانه، وهو صديق حميم للشيخ إبراهيم الأحذب، ويصح ما قال فيهما مارون عبود بأسلوبه الرشيق "عاشا صديقين وكأهما كانا على موعد، فلحق الأحذب بصفيّه الأسير بعد أشهر^٣..." وكان على صلة ودّ بالشيخ أحمد فارس الشدياق، فهو الذي هبّ يدافع عنه ضدّ خصومه من علماء اللغة ويدراً عنه السهام الصائبة "فيردّها على نحر رماحها خائبة". وعلاقته كانت طيبة مع الشيخ ناصيف اليازجي وهو حي.

وفاته

توفي الشيخ يوسف الأسير في بيروت مساء يوم الجمعة في السادس من شهر ربيع الثاني سنة سبع وثلاثمئة والـ (١٣٠٧هـ) عن سبع وسبعين سنة قمرية^٤ الموافق الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٨٩م، عن أربعة وسبعين عاماً ميلادياً^٥. وفي اليوم التالي لوفاته، أي يوم السبت في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٨٩م، صار تجهيزه وتكفينه، وصليّ عليه في الجامع العمريّ الكبير، وشيّع نعشه، وسار في جنازته الأعيان وخلّق كثير، ثمّ دُفن في مقبرة الباشورة في بيروت. [...].

انتشر خبر وفاته، فأسف أهل بيروت وسائر بلاد الشام على فقده، ونعتّه الجرائد جميعها في لبنان والبلاد العربية، وأبته الشعراء والكتّاب. وقد جمع إبراهيم الأحذب، وهو صديقه الحميم، هذه الأشعار والخطب في كتاب أسماه "مراثي الشيخ يوسف الأسير" طبع في بيروت، وهو يتألف من إحدى وأربعين صفحة من الحجم المتوسط، وقدمه بثلاث صفحات، قال فيها: "أمّا بعد فقد أصيب فريق

١ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ١٦٤.

٢. الدمام هو الحقّ والحرمّة.

٣ الأسير، الشيخ يوسف، الديوان، بيروت، ١٣٠٦هـ، ص ٢٥-٢٦. ["وسحبان (ت ٦٧٤ م) رجل من بني باهلة يُضرب به المثل في الخطابة والفصاحة فيقال أخطب من سحبان وائل"]

٤ عبود، مارون، رواد النهضة الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢، ص ٧٢.

٥ المقتطف، ج ١٥، ص ١٣٣.

٦ بينما كنت أتصحّح كتاب "اكفاء القنوع بما هو مطبوع" للدكتور فاندريك، تصحيح محمّد علي البيلوي، الهلال، مصر ١٨٩٦م/١٣١٣هـ، وجدّث في الصفحة ٣٠٠ أنّ الشيخ يوسف توفي سنة ١٨٨٥م على خلاف كلّ المراجع. لكنّ فاندريك يذكر، في الصفحة ٤٩٦، أنّ الأسير توفي سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م وربما يكون ذلك خطأ طباعياً أو ورد سهواً، إذ لا جدال على سنة وفاته.

العلم بأعظم المصائب... حيث دهمت الطامة الكبرى.. بفقد العالم العلامة والحبر التّحرير... الشيخ يوسف الأسير.. وصوّحت^١ رياض العلم... فهي تندبه بـ"لسان الحال" كـ"ثمرات" تلك الفنون، وتُجوب أقطار العالم بـ"جوائب" آثاره التي تفجّرت منها لـ"روض" المعارف عيون. و"الصفاء" تبدّل بالكدر وإنّ صفاء بندبه. و"الرائد" رجع خائباً إذ لم يُغز من وركّه بشرية. وثغر بيروت يُجري عليه مدامع من فرط الأسف، و"البشير" لم يجد ففده بشري، إذ كان بفضله اعترف، وطالما كانت مصر به القاهرة، و"الأهرام" حُمّل به ما لا يقوى على حمله حتّى أصبحت أجفانه بالساهرة. و"المقتطف" حلّ ما اقتطف من آثاره. و"المقطّم" اندكّ لما دهمه من أخباره. و"الحقائق" رأّت ندبه من الحقوق المشروعة. و"الميزان" أقام له وزناً يفقر لا مقطوعة ولا ممنوعة...^٢. وقد ربّب الأحذب ما جمعه على مقدّمة ومقاتلتين: المقدّمة كتبها الشيخ أبو الحسن قاسم الكسّبي، والمقالة الأولى هي في ما قيل فيه من شعر، والمقالة الثانية في ما قالته الجرائد. والمقدّمة هي ترجمة لحياة الأسير، وقد قال الكسّبي يرثيه شعراً:

يا من دعاه لدارِ الفوزِ مولاةً طبّ بالكرامة نفساً، حسْبُك اللهُ...

لو كان مثلك كلُّ الناسِ ما خلقتُ دائرُ العذابِ ولم ينقصْ لهم جأه...^٣

واجمل ما قيل فيه هو رثاء صديقه الشيخ إبراهيم الأحذب:

أصيبَ منّا العلمَ وأهددَ جانبُهُ ونايبتُهُ من ريبِ المنايا نوابتُهُ

لقد راعَ ريبُ الدهرِ يوسفَ عصرِهِ فأصبحَ يعقوبُ النوابِ نادبُهُ

فشققتُ جيوبَ بلِ قلوبِ لفقديهِ وقامتْ لندبِ العلمِ تشكو نوادبُهُ^٤

ومن الذين رثوه شعراً وذكرهم الأحذب: علي أبو المواهب الدجاني مفتي يافا، والشيخ مصطفى نجحا، وحسن بيهم الذي قال:

أسيرُ التقي لله صار مليباً فخلّفَ فينا الحزن، فالكلّ ناكلُ

وكم بنى علماً بيننا ومعارفا وكم نالَ فضلاً منه في الناسِ فاضلُ

عليه من الرحمن أوفرُ رحمةً تقول له: إبشرْ أنتَ للخلودِ داخلُ^٥

ومحمد اللباييدي يعدّد مزاياه العلميّة:

علامة العلماءِ قرّدُ زمانِهِ في النحوِ والتصريفِ والتجويدِ

وبيانِهِ وكلامِهِ وأصولِهِ وحديثِهِ والفقهِ والتوحيدِ

١ [صاح الشيء يصوِّحُه صَوِّحًا شَفَّه. وتصوِّح الشيءَ تَصَوِّحًا تَشَفَّقًا]: البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، قاموس مطوّل للغة العربيّة، طبعة جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧، ص ٥٢٣].

٢ المرثي، ص ٢-١، (مرثي الشيخ يوسف الأسير). [الكلمات الموضوعية بين مزودجين هي أسماء جرائد ومجالات كانت تصدر في بيروت والقاهرة والأستانة وكان الشيخ الأسير يحزّر في العديد منها].

٣ المرثي، ص ٧.

٤ المرثي، ص ١٦.

٥ المرثي، ص ١٠.

أما العَروض فراح من عَبراته غرقًا ببحرٍ وافرٍ ومديدٍ^١

ويذكر الشيخ محمد الكستي مكانته في التدريس:

أيا دهرٌ يَتَمَّت المدارسِ بعده وأصبحَ ثَمَلُ الطالبين مبدّدا..

ورثاه كذلك الشيخ إبراهيم المجذوب، والشيخ عبد الرحمن سلام، وشاعر خيام مرجعيون محمد الحاج حسن عبدالله، وفارس شقير، ومحسن أمين، وقاضي محكمة إستئناف جبل لبنان الشيخ سعيد حمدان، ثم راغب عزّ الدين، ومحيي الدين الخياط، والأمير نسيب أرسلان، وراغب الدرزي، والياس حنكاتي، ومحمد زين الدين كاتب ضبط محكمة الشوف في لبنان، وأحمد عمر الخطيب من برجاء، وفرحات حمادي، وحسن حمادي، والياس جرجس الشدياق، وسليم سجعان أبو ياغي...

وكما رأينا من قول الأحدث فإنّ الجرائد نعتة جميعها، ومنها: جريدة "الصفاء"، وجريدة "اللوائف الأدبية"، و"جريدة بيروت" الرسمية، وجريدة "ثمرات الفنون"، وجريدة "حديقة الأخبار"، وجريدة "لسان الحال"، و"المصباح المنير"، و"الأهرام"، [وغيرها]. ضجّت البلاد لفقدته نظرًا لما كان عليه من أخلاق كريمة، وسيرة حسنة.

خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ

كان الشيخ يوسف الأسير رُبع القامة، معتدل الجسم، أسمر اللون، أسود الشعر، كثّ اللحية^٢. وكان ظاهره الوداع ينمّ عن داخله الرفيع، فهو ذكيّ الفؤاد، فصيح اللسان، يجيد النثر والنظم^٣. ولم يكن ثقیل الظلّ فيه جفاف العلماء بل كان خفيف الروح، يُسْتَظَرَف مجلسه ويستظرف^٤. كما كان على جانب عظيم من الرقة والدعة، وحسن المعاشرة، زاهدًا في الدنيا^٥، صادق الوعد، قويّ الذاكرة. كما كان أيضًا دقيق الانتقاد، ثقة في العلوم العربية والفقهية^٦.

كان الشيخ يوسف يحبّ العلم والعلماء، ويأخذ بناصرتهم. وكان شافعيّ المذهب، سالكًا مسلك الأقدمين في حبّ العلم والرغبة في نشره ابتغاء الفائدة العامة. وكان، لحسن عقيدته، راغبًا عن الدنيا زاهدًا فيها، ثابتًا في اتّباع فروض الدين، لا يستنكف من حمل

١ المرآئي، ص ١٢.

٢ زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٦٥.

٣ شيخو، الأب لويس، المشرق، ج ١٢، السنة ١٢، عام ١٩٠٩، ص ٥٤٢.

٤ عبّود، مارون، رواد النهضة الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢، ص ٧٦.

٥ زيدان، جرجي، المرجع السابق؛ سركيس، يوسف البان؛ "الأسير"، (الشيخ) يوسف" في معجم المطبوعات العربية والمعربة، مصر، ١٩٢٨.

٦ داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٢٣.

حاجيات بيته الضرورية بنفسه. وكان كثير الشغف بتلاوة القرآن الكريم أو سماعه كلّ يوم^١، حتّى إنّه كان يقول: "إنّا لو وجدنا هذا القرآن الشريف في البريّة لما شككنا أنّه من عند الله تعالى"^٢. كما يُذكر أنّه كان بعيداً عن التعصّب الأعمى.^٣

وبسبب أعماله الجليلة في حقل التدريس والصحافة والتشريع والتصحيح، وبعض المراكز الهامة، أنعمت عليه السلطنة العثمانية براتب شهري^٤. ولقد ذكرت "ثمرات الفنون"، وكانت أسبوعية تصدر كلّ يوم الإثنين ما يلي: "ذكرت الجرائد المحلية أنّه أحسن من المكارم الشاهانية براتب خمسمائة قرش إلى صاحب الفضيلة الشيخ يوسف أفندي الأسير، نشكر الألفاظ السنية، ولا زال فيض الإحسان العالي يشمل أهل العلم والعرفان"^٥. لكنّ هذه النعمة لم تطل، لأنّ الشيخ تُوفي في ٢٨ تشرين الأوّل سنة ١٨٨٩، أي لم يقبض من هذا الراتب سوى معاش شهر واحد.

١ دي طرازي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربية، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٨.

٢ الأحذب، إبراهيم، مراثي الشيخ يوسف الأسير، ص ٥.

٣ آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، ج ٢، مرجع سابق، ص ٣٢٥.

٤ المراثي، ص ٤١، نقلاً عن جريدة الأهرام.

٥ ثمرات الفنون، عدد ٧٥٣، السنة السادسة عشرة، يوم الإثنين في ١٩ صفر سنة ١٣٠٧ الموافق ٢ و ١٤ تشرين الأوّل سنة ١٨٨٦، برئاسة عبد القادر قباي